

أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي والفكري والعلمي

أ.د/ عبد الحليم بوزيد - جامعة باتنة.

تعتبر العقيدة الإسلامية الصحيحة زيادة في الهداية والتثبيت على الحق، وصواب في الفكر، وصلاح العمل، خلافا للعقيدة الفاسدة وما تؤثره على قلب العبد وفكره وعمله.

إننا إذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا أنها قد أنعتت قلوب الكفار بجملة من الأوصاف؛ قال القرطبي: «.. وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع الضيق والمرض، والرين والموت والقساوة والانصراف والحمية والإنكار؛ فقال في الختم: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ (البقرة:7)...»⁽¹⁾ وقال في الطبع: ﴿طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ (المنافقون:2)، وقال: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ (النساء:156)، وقال في الضيق: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ (الأنعام:25)، وقال في المرض: ﴿في قلوبهم مرض﴾ (البقرة:11)، وقال في الرين: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المطففين:14)، وقال في الموت: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ (الأنعام:122)، وقال: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله﴾ (الأنعام:26)، وقال في القساوة: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ (الزمر:77)، وقال: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ (البقرة:74)، وقال في الانصراف: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (التوبة:177)، وقال في الحمية: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية﴾ (الفتح:26)، وقال في الإنكار: ﴿قلوبهم منكرا وهم مستكبرون﴾ (النحل:22).

ويمكن أن نضيف صفتين أخريين لم ينص عليهما⁽²⁾ وهما:

- الأكنة، قال تعالى: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ (الكهف:57).

- والأقفال، قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (محمد:24).

وإذا تأملنا وجدنا أن الكفار عندما اختاروا طريق الكفر كانت لهم هذه الأوصاف قال تعالى: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (هود:101)، فبين الله طبائعهم:

1 - الصرف: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (التوبة:177).

2 - الضيق: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا﴾ (الأنعام:25).

3 - الطبع: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ (النساء:156).

4 - الختم: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ (البقرة:7).

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي

5 - والأكنة: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ (الكهف:57).

6 - والأفقال قريبة من معنى الطبع والختم، فيمكن إدراجها ضمنها وإن لم ينص صراحة على إيقاعها: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (محمد:24).

أما المرض فقد نصت الآية على زيادته: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ (البقرة:11).

وأما الرين فإن الآية قد نسبت وقوعه إلى أعمال السوء التي يكسبها الكفار: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المطففين:14).

وقبل النظر في هذه القبائح وعلاقتها بالكفر، فإننا نستثني الضيق لارتباطه بمعنى نفسي.

وأما أكثر هذه الصفات ورودا في القرآن الكريم فهي الطبع ثم الختم، ثم الأكنة، وأما الأخرى فقد ورد ذكر كل واحدة منها مرة واحدة فقط.

1 - **الطبع والختم:** حصر غير واحد من المفسرين؛ الطبع والختم في معنى واحد⁽³⁾. قال ابن جرير: «وأصل الختم الطبع، والخاتم هو الطابع، يقال منه: ختمت الكتاب إذا طبعته»⁽⁴⁾، وقال القرطبي: «والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختم شدد للمبالغة، ومعناه التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه ولا يوضع فيع غير ما فيه»⁽⁵⁾. وهئية هذا الختم تكون بوضع طين، وتصويره على سلوك مخالف وضع نقش عليه حتى إذا فتح بان لمغلقه فتحه، قال ابن عاشور: «والختم حقيقته السد على الإناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة مرسومة في خاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم، فإذا فتح علم صاحبه أنه فتح لفساد يظهر في أثر النقش»⁽⁶⁾.

قال ابن جرير: «فإن قال لنا قائل: وكيف يختم على القلوب وإنما الختم طبع على الأوعية والظروف والغلف؟ قيل: فإن قلوب العباد أوعية لما أودعت من العلوم، وظروف لما جعل فيها من المعارف من الأمور؛ فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع التي بها تدرك المسموعات ومن قبلها يوصل إلى معرفة حقائق الأنبياء عن المغيبات، نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف»⁽⁷⁾.

فجعل القلب وعاء معدا لحلول العلوم وظرفا تجعل فيه المعارف بالأمور، فإذا ختم عليه فقد منع من حلول ذلك فيه، وهذا المعنى يشهد له قول النبي ﷺ في القلب من المران عليه: (كالكوز مَجَجِيًّا)⁽⁸⁾، أي كالكأس المقلوب: وهي هيئة تجعله فارغا، كما أن تشبيهه بالكوز صريح في نقل صورة الوعاء⁽⁹⁾. ومعنى «بكفرهم»: أي جزاء لكفرهم⁽¹⁰⁾، وقد نص قتادة على ذلك عند تفسيره لآية الختم من سورة البقرة فقال: «استحوذ عليهم الشيطان

إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون»⁽¹¹⁾.

ولئن كان المفسرون يجعلون الطبع والختم بمعنى واحد - كما تقدم -، فلقد ذكر الفيروز آبادي فرقا دقيقا بينهما، قال: «والطبع الختم: وهو التأثير في الطين، وقوله تعالى: ﴿وَنُطِّعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يسمعون﴾⁽¹²⁾: أي نختم عليها مجازاة لهم فلا يدخلها الإيمان. وقيل: الطبع أن يصور الشيء بصورة ما كطبع السكة وطبع الدراهم وهو أعم من الختم وأخص من النقش»⁽¹³⁾.

فالفيروز آبادي يقرر أولا أن الطبع والختم يحملان معنى متطابقا، ثم يذكر قولاً - لا يعلق عليه بالنقض أو التأييد - يفيد أن بينهما عموماً وخصوصاً. غير أننا وجدنا بعض الباحثين يميلون إلى رفض فكرة التطابق الكامل بين معاني المترادفات وذلك يفرض وجود فارق بين الطبع والختم؛ يقول الدكتور أحمد رحمانى: «.. وهذا ما حدث بالضبط مع مصطلح الران إذ عبر عنه كظاهرة مرضية وحالة نفسية وعقلية بمفردات وتراكيب متعددة أثرته بأن زادته وضوحاً وجلاءً فعبر عنه أحياناً بالأفقال، والمرض، والختم والوقر والعمى والطبع والغشاوة والزيغ..»

ولا شك أن تغير المصطلح والعدول عنه لغيره لا يكون إلا للزيادة في المعنى والتكثير فيه كما يقول ابن جني وغيره ممن عني بمسألة تغيير المعاني وثرائها تبعاً لتغير المباني وألفاظها..»⁽¹⁴⁾. أما صاحب كتاب (القلب ووظائفه) فينص صراحة على أنه لا بد أن يكون بين الختم والطبع فرق، فيقول: «والحق تبارك وتعالى وصف القلب الميت بأوصاف عدة.. وكل صفة لا بد أن تكون لمرتبة يصل إليها العبد.. ولا يمكن أن تكون هذه الأوصاف مجرد أسماء؛ فالختم لا بد أن يكون غير الطبع وغير الأفقال..»⁽¹⁵⁾. هذا وقد وجدنا ابن القيم يوضح هذا الفرق ويبينه فيقول: «قال أبو إسحاق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه فلا يدخله شيء..»

قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق»⁽¹⁶⁾.

ولقد لاحظت أن القرآن الكريم إذا تحدث عن القلب وحده استعمل فيه (الطبع)، كما قال تعالى: ﴿وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ (النساء:55)، وقال عز وجل: ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ (التوبة:87)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ (التوبة:92)، وقال: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ (المنافقون:3)، إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى - في المرتدين - ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي
وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿
(النحل:106-108).﴾

وإذا عطف عليه السمع والبصر استعمل فيه (الختم)، كما قال تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ (البقرة:7)، وقال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ (الجنات:23)، إلا في آية واحدة أيضا وهي قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتري على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور﴾ (الشورى:24)⁽¹⁷⁾، والآية تنص على أن المشركين يزعمون - في سفاهة - أن النبي ﷺ قد افتري على الله كذبا، والله - عز وجل - قادر على أن يختم على قلبه - إن فعل - وأن يحمو الباطل، قال البغوي: (بل يقولون - يعني كفار مكة - افتري على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك) قال مجاهد: «يربط على قلبك بالبصر حتى لا يشق عليك أذاهم، وقولهم إنه مفتر»، وقال قتادة: «يعني يطبع على قلبك فينسيك القرآن وما أتك، فأخبرهم أنه لو افتري على الله كذبا لفعل به ما أخبر عنه في هذه الآية»⁽¹⁸⁾.

فقد ذكر البغوي في معنى الختم قولين:

- أحدهما: الربط على قلبه - عليه الصلاة والسلام - بالصبر فلا يشق عليه أذاهم وبه قال مجاهد.

- والثاني: طبع العقاب الذي تقدم الحديث عنه وبه قال قتادة.

قال اليماني: «وبالتتابع نجد الختم وغيره على القلوب لا يكون إلا بعد تماديها في الكفر والعصيان فيكون ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيبهم الرسل باختيارهم ومشيتهم.. ورسول الله ﷺ أعرف الناس بربه فلا تصدر عنه المعاصي. ثم إن الختم إغلاق على القلب بما حوى، فلا يخرج منه ولا يدخل إليه شيء، وقلب المصطفى مليء إيمانا فالختم على قلبه الشريف يكون بعدم المبالاة بتكذيبهم إياه..»⁽¹⁹⁾.

فترجح من خلال هذا أن المقصود بالختم في هذه الآية شيء غير الختم المرادف للطبع، ولما كانت الآية الوحيدة التي ذكر فيها الختم مقصورا على القلب وحده، فإن هذا يؤكد ما تقدم من تعلق الختم بالقلب المفكر المدرك قرين السمع والبصر.

وأما الآية التي جاء فيها الطبع على القلب مقرونا بالسمع والبصر فهي قوله تعالى من سورة النحل: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم

وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿ (النحل:106-108).

وفي نفس السورة آية قريبة من معنى الآية التي هي موضوع النظر، وقد جاء فيها تحديد وظيفة السمع والبصر والفؤاد: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:78).

فالعباد حين خروجهم من بطون أمهاتهم لم يكونوا يعلمون شيئاً .. ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده..»⁽²⁰⁾، وبتوظيف السمع والبصر والفؤاد يحصل الإدراك والتعلم.

والذي يهمننا هنا هو أن سورة النحل قرنت السمع والبصر بالفؤاد الذي هو مرادف من مرادفات العقل⁽²¹⁾، وقد بين ابن كثير أن المقصود به القلب المفكر أو العقل، وذلك يقودنا إلى تغليب أن يكون المقصود بالقلب المطبوع عليه في الآية الأخرى أيضا العقل كما يؤيده عطف السمع والبصر عليه. وهو ما يجعلنا نتساءل: لماذا نسب إليه الطبع في هذه الآية من دون سائر الآيات الأخرى؟

يبدو أن الآية تتحدث عن فئة خاصة من الناس لم يتوقف الطبع عندها عند حد القلب بل وصل إلى العقل والسمع والبصر، فالآلة عندها ليست معطلة ولكنها تعمل في الاتجاه الخاطئ فهي تقلب الحقائق وتصبغ الأشياء وتظهرها على غير ما هي عليه، والملاحظ أن هذه الفئة من الناس حدث لها مسخ كلي، ولذلك فهي:

1 - تختار الكفر بعد أن عرفت الإيمان: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ (النحل:106).

2 - تنتشر صدورها للكفر على خلاف مقتضى الفطرة: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾ (هود:43).

3 - تستحب المتاع الدني الفاني على الجليل الدائم: ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (النحل:107).

فالفئات الأخرى من الكفار أثر الكفر في قلوبها وانسحب ذلك على العقل والسمع والبصر فتعطل وختم عليه، أما هذه الفئة فإن الكفر أصاب فيها عمق العقل والسمع والبصر كما أصاب القلب، وقد يكون من مؤديات هذا المعنى أن الآيات التي ذكر فيها الختم على القلب المفكر وصفت فيها الأبصار بأن عليها غشاوة شيء يعطل البصر ولكنه خارج عن

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي

الآلة - العين ، أما في الطبع فلم يأت ذكر للغشاوة ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون □ (النحل:108)، وذلك ما يوحي بأن العطب في عمق الآلة والله أعلم.

فنخلص من ذلك إلى أن الطبع شيء أخص من الختم، ومتعلق بالدرجة الأولى بالقلب المعتقد، وقد يتعداه عند طائفة من الكفار إلى العقل المفكر.

2 - الأكنة: وقع في النص أن على قلوب الكفار أكنة في قوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا □ (الإسراء:75-76).

كما أخبر عنهم أنهم وصفوا أنفسهم بأن على قلوبهم أكنة، قال تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون □ (فصلت:5).

فأما الأكنة فهي: الأغطية، وأحدها كنان (22).

وأما الوقر فهو: «الثقل في الأذن المانع من السمع، فهو الصمم» (23).

والآية تنص على أن هذه الأكنة متفرعة عن عدم إيمانهم باليوم الآخر، وجاء في آية أخرى تقرير نتيجة ذلك وهي انصرافهم عن الحق وعدم فقههم له: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهون وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا □ (الكهف:57). فبسبب أن على قلوبهم أكنة فإنهم لن يهتدوا أبدا.

ولكن ما معنى أخبارهم هم عن أنفسهم بأن على قلوبهم أكنة؟

يظهر أن كلامهم هذا وقع على جهة الاستهزاء والتينيس، قال الطبرسي: «وإنما قالوا ذلك ليؤيسوا النبي ﷺ من قبولهم دينه، فكأنهم شبهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلا يصل إليه ما وراءه..» (24)، وهم في نفس الوقت لم يكونوا يعلمون أن ما قالوه على سبيل الاستهزاء قد وقع بهم حقا، فأخبر سبحانه أنه قد جعل على قلوبهم بكفرهم أكنة فلا يصل الحق إليها.

3 - الأقفال: ذكرت الأقفال في قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها □ (محمد:24). والآية تتحدث عن المنافقين، وهم مندرجون في عداد الكفار بالنظر إلى حقيقة ما تكن قلوبهم، ويستبعد أن يكون هذا الوصف مما يختصون به من دون سائر الكفار لأنه مرتبط بالباطن الذي يشتركون فيه معهم.

والاستفهام في الآية: «للإنكار، والمعنى: أفلا يتفهمونه فيعلمون بما اشتمل عليه من المواعظ الزاجرة والحجج الظاهرة والبراهين القاطعة التي تكفي من له فهم وعقل وتزجره عن الكفر بالله والإشراك به والعمل بمعاصيه، أم على قلوب أفعالها»⁽²⁵⁾.

و(أم) بمعنى: بل، أي «بل على قلوب أفعالها فهم لا يفهمون ولا يعقلون»⁽²⁶⁾، و«ذكر الأفعال استعارة، والمراد أن القلب يكون بالبيت المقفل لا يصل إليه الهدى»⁽²⁷⁾.

قال الشوكاني: «ومعنى الآية: أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك لأن الله سبحانه قد طبع عليها»⁽²⁸⁾، لذلك تكون الآية قد قررت أن على قلوب الكفار أفعالاً وهي أخت الطبع والختم والأكنة، وسيأتي الحديث عن الفروق بينها - إن شاء الله -.

4 - **الصرف**: جاء صرف القلب في الحديث عن المنافقين أيضاً، قال تعالى: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (التوبة:127). وما قيل في الأفعال من قبل يقال هاهنا في الصرف، أي اشتراكهم مع الكفار فيه.

وقد جاء الصرف في الآية مفرعاً عن انصرافهم عن الاستجابة للحق وقبولهم له، ووقع النص عليه بصيغة تحتل الخبر أو الدعاء، قال القرطبي: في [قوله تعالى]: ﴿صرف الله قلوبهم﴾: دعاء عليهم، أي قولوا لهم هذا، ويجوز أن يكون خبراً عن صرفها عن الخير مجازة عن فعلهم، وهي كلمة يدعى بها كقوله ﴿قاتلهم الله﴾ (التوبة:30)⁽²⁹⁾.

وحتى على تقدير كونه دعاء فإنه هنا يفيد التحقق، وأما معنى أنه سبحانه صرف قلوبهم: «أضلهم مجازة على فعلهم»⁽³⁰⁾.

وعليه فإن أهل الانحراف في الاعتقاد يصرف الله قلوبهم عن الحق، كما يختم عليها ويطبع.

5 - **القسوة**: قبل الحديث عن القسوة يجب أن نفرق أولاً بين ما يتعلق منها بالأثر النفسي، وهو المذكور في قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ (الزمر:23) - ويأتي الحديث عنها في موضعها إن شاء الله - وبين المتعلقة منها بالأثر الاعتقادي، وهي التي أخير سبحانه وتعالى أنه جعلها في قلوب اليهود بسبب نقضهم الميثاق، قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ (المائدة:13).

فإن اليهود لما نقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم جعل قلوبهم قاسية، فلما قست قلوبهم صاروا يحرفون الكلم عن مواضعه. قال القرطبي: «كالصلابة والشدّة واليبس، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى»⁽³¹⁾.

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي

وهذا المعنى تكرر وصف اليهود به في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْهَقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:74).

وقد نصت الآية على أن هذه القسوة قد بلغت مبلغا يفوق في وصفه ما يتصف به الصخر الذي قد يتفجر بالأنهار أو يشقق فيخرج منه الماء أو يهبط من خشية الله.

6 - الرين: ذكر الرين على قلوب الكفار في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14)، وقد جاءت الآية نافية لدعوى المكذبين أن الوحي أساطير الأولين، ومقررة أن تكذيبهم مرده إلى أنه قد ران على قلوبهم سوء عملهم، فهي «.. بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين»⁽³²⁾.

ومعنى «.. (ران على قلوبهم) : غلب على قلوبهم وغمرها وأحاطت بها الذنوب فغطتها، يقال منه: رانت الخمر على عقله فهي ترين عليه رينا وذلك إذا سكر فغلبت على عقله»⁽³³⁾.

قال ابن كثير: «والرين يعنري قلوب الكافرين والغيم للأبرار والغين للمقربين»⁽³⁴⁾. فجعل الرين شيئا خاصا بالكافرين، بينما جعل مصطلح الغيم خاصا بالأبرار والغين بالمقربين، ويبدو أن مستنده في ذلك حديث: (إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة)⁽³⁵⁾.

وهذا الرين مرده إلى غلبة الذنوب على قلب العبد، قال السجستاني: «أي غلب على قلوبهم كسب الذنوب، كما ترين الخمر على عقل السكران، ويقال: ران عليه النعاس وران به إذا غلب عليه»⁽³⁶⁾.

ومعنى أن يغلب على قلبهم كسب الذنوب بلوغهم إلى مرتبة لا يملكون فيها أمهرم، «قال أبو زيد: يقال قد رين بالرجل رينا: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به»⁽³⁷⁾. وقد بين ابن جرير صفة وقوع ذلك فقال: «والحق في ذلك عندي ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ما حدثنا به محمد بن يسار... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كان نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى يغلف قلبه، فذلك الران الذي قال الله جل ثناؤه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»⁽³⁸⁾، فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ (البقرة:7) نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذا لا يصل

الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضه خاتمه وحله رباطه عنها» (39).

فقد نص ابن جرير على أن هذا الران يتكون بتتابع الذنوب وترسب آثارها على قلب العبد حتى تغطيه تغطية كاملة، مستدلاً على ذلك بحديث رسول الله ﷺ.

وقد أشار إلى ارتباط ما بين الران وما ذكر أنفاً من الطبع والختم والغلف - الأكنة - وهو ما يدفعنا إلى السؤال عن العلاقة بين هذه المسميات.

أ- العلاقة بين الختم والطبع والرین والأقفال والأكنة والصراف:

ذكر المفسرون أن هذه المسميات بعضها أعلى درجة من بعض وإن كان جميعاً يؤدي إلى نتيجة واحدة، فقد روى ابن جرير بسنده عن (عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهداً يقول: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد من ذلك كله) (40)، وقال أبو معاذ النحوي: «الرین أن يَسْوَدَّ القلب من الذنوب، والطبع أن يطبع على القلب وهو أشد من الرین، والإقفال أشد من الطبع» (41). فكأن مجاهداً نظر للصورة الحسية للختم: «مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختم شدد للمبالغة، ومعناه: التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه ولا يوضع فيه غير ما فيه» (42)، فإن الإنسان إذا أراد أن يمنع من وصول شيء إلى ما يروم ختمه:

1 - بدأ بتغطية فيكون على هيئة الذي ران عليه غطاؤه أي غشيه.

2 - ثم يغلق عليه غطاؤه فيختمه ويطبع عليه.

3 - فإذا أراد أن يستوثق أكثر من إحكام هذا الغطاء جعل عليه أقفالاً.

وكلام أبي معاذ النحوي يندرج في السياق نفسه.

ويدل على أن الإنسان يمر بهذه المراحل واحدة بعد الأخرى، حتى تصل إلى مرحلة لا يرجع فيها عن غيه أبداً، ولا تؤثر فيه حجة، والأمر الذي يقودنا إلى مسألة أخرى وهي تأثير فكر الكافر بعقيدته الفاسدة.

ب - أثر الكفر على المستوى الفكري:

وصف القرآن الكريم الكفار بالصمم والبكم والعمى وعدم العقل، وبأن حالهم كحال الإنعام التي لا تفهم من الخطاب إلا الدعاء والنداء، فقال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ (البقرة: 171).

قال النسفي في بيان معناها: «(ومثل الذين كفروا): المضاف محذوف أي: ومثل داعي الذين كفروا (كمثل الذي ينعق) يصيح، والمراد (بما لا يسمع إلا دعاء ونداء):

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي

البهائم، والمعنى ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وجزر لها، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء، والنعيق: التصويت يقال: نعق المؤذن ونعق الراعي بالضأن، والنداء: ما يسمع، والدعاء: قد يسمع وقد لا يسمع، صم: خبر مبتدأ مضمرة أي: هم: صم، بكم: خبر ثان، عمي: عن الحق خبر ثالث، فهم لا يعقلون: الموعظة» (43).

فضربت الآية للكفار مثلين:

- **المثل الأول:** مثل الأعمى الأصم الأبكم الذي لا يعقل في عدم إدراكهم للحق أو استجابتهم له.

- **المثل الثاني:** مثل الأنعام التي إن سمعت فإنها لا تفقه مما تسمع إلا الصياح والدعاء والنداء.

وهذا الوصف تكرر للكفار في سورة الأعراف مرة أخرى كما قال تعالى: ﴿ولقد نظرنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف:179).

وهذه الآية تزيد في بيان أمرين:

- **أحدهما:** أن ما وصفوا به في الآية الأولى من العمى والصمم وعدم العقل ليس مرده إلى عطب خلقي في الآلة، ولكن إلى شيء آخر؛ فهم لهم قلوب - أي عقول - ولكنهم لا يفقهون بها، ولهم أعين ولكنهم لا يبصرون بها، ولهم أذان ولكنهم لا يسمعون بها، «فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو وإلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه» (44).

- **والثاني:** أنهم أشبه بالأنعام التي لا يعقل من الخطاب إلى الصياح والدعاء والنداء، (بل هم أضل): أي من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أفس بها وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء، ولأن الدواب نفقه ما خلقت له إما بطبيعتها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به» (45).

وهذا الوصف يجعلهم لا يستجيبون للحق سواء عليهم في ذلك أنذروا أم لم يندروا: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ (البقرة:6-7).

وهذه الآية تكشف عن السبب الذي لأجله لا يعقلون ولا يسمعون ولا يبصرون مع عدم وجود عطب خلقي في الآلة؛ وهو أنه قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وأن على أبصارهم غشاوة: فأما الختم فقد تقدم معناه، وأما (غشاوة) ف (خبر مبتدأ بعد تمام الخبر عما

ختم الله جل ثناؤه عليه من جوارح الكفار الذين مضت قصصهم، وذلك أن غشاوة مرفوعة بقوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾، فذلك دليل على أنه خبر مبتدأ وأن قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ تناهى عند قوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وذلك هو القراءة الصحيحة عندنا لمعنيين: أحدهما: اتفاق الحجة من القراء والعلماء على الشهادة بتصحيحها وانفراد المخالف لهم في ذلك وشذوذه عما هم تخطئته مجتمعون، وكفى بإجماع الحجة على تخطئة قراءته شاهداً على خطئها، والثاني: أن الختم غير موصوفة به العيون في شيء من كتاب الله ولا في خبر عن رسول الله ﷺ ولا هو موجود في لغة أحد من العرب، وقد قال تبارك وتعالى في سورة أخرى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (الجاثية:23)، فلم يدخل البصر في معنى الختم وذلك هو المعروف في كلام العرب..»⁽⁴⁶⁾.

«.. والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر»⁽⁴⁷⁾، كما روي عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ⁽⁴⁸⁾.

هذا وقد تكرر هذا الوصف لعدم قبول الكفار للحق بصورة قريبة من هذا في سورة يس، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يبصرون وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (يس:8-10).

وقد «.. مثلت حالهم بحال الذين غلت أعناقهم (فهى): أي الأغلال منتهية إلى الأذقان، فلا يقدرّون عند ذلك على الالتفات ولا يتمكنون من عطفها، وهو معنى قوله: (فهم مقمحون): أي رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم..»

فاللفظ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا ونظيره: ﴿سراييل تقيم الحر﴾ (النحل:81): وتقديره وسراييل تقيم البرد لأن ما وقى الحر وقى من البرد، لأن الغل إذا كان في العنق فلا بد أن يكون في اليد ولاسيما وقد قال الله ﴿فهى إلى الأذقان﴾، فقد علم أنه يراد به الأيدي (فهم مقمحون)، أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق، لأن من غلت يده إلى ذقنه ارتفع رأسه.. (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا): أي منعناهم عن الإيمان بموانع فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد، والسد بضم السين وفتحها لغتان... (فأعشيناهم): أي غطينا أبصارهم (فهم) بسبب ذلك (لا يبصرون): أي لا يقدرّون على إبصار شيء، قال الفراء: فألبسنا أبصارهم غشاوة: أي عمى فهم لا يبصرون سبيل الهدى...»⁽⁴⁹⁾.

وهذه الآية خلافاً لآية البقرة:

- لا تنص على ختم في القلب بينما تنص آية سورة البقرة عليه.

- لا تنص أيضاً على ختم على السمع خلافاً لآية سورة البقرة.

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي

- تجعل العطب خارجا عن الآلة؛ فالسد والأغلال وإن كانت مانعة من الإبصار، فإنها شيء لم يؤثر في البصر حقيقة.

وهذا والملاحظ أن الغشاوة المذكورة في آية سورة البقرة هي أيضا شيء خارج عن عمق الآلة - أعني آلة الإبصار -، غير أن الغشاوة إذا كانت على العين فهي مانعة للبصر منعا كلياً، أما السد والأغلال فهي تترك مجالاً ما للإبصار - والله أعلم -.

فعل الأيتين تتحدثان عن درجتين مختلفتين من العمى تكون إحدهما أكبر من الأخرى، وقد جاء في آية سورة النحل ما يجعل العطب في عمق الآلة، بل يجعله طبعاً بآثر لا يزول، كما يجعله شاملاً للقلب والسمع والبصر: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم أولئك هم الغافلون﴾ (النحل:108).

و«.. الطبع أثر يثبت في المطبوع، ويلزمه، فهو يفيد من معنى الثبات اللزوم ما يفيد الختم، ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعاً وهو الأثر الذي يؤثر فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضاً قيل: (طبع الإنسان) لأنه ثابت غير زائل، وقيل: (طبع فلان على هذا الحق) إذا كان لا يزول عنه، وقال بعضهم: الطبع علامة تدل على كنه الشيء، قيل: (طبع الإنسان) لدلالته على حقيقة مزاجه، من الحرارة والبرودة، وطبع الدرهم علامة جوازه، ولذلك فمن ختم على قلبه - والعياذ بالله - يمكن أن ترجى توبته، أما من طبع على قلبه فقد منه الأمل»⁽⁵⁰⁾.

إذا فهؤلاء صار العمى والصمم بالإضافة إلى انغلاق القلب والعقل طبعاً لهم لا يزول ولا ترجى لهم منه توبة، وقد يثوب المذكورون من قبل.

هذا وقد أشارت آية أخرى إلى دور الهوى في هذه التعمية والتغشية والختم، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ (الجن:23).

فالآية تقر نفس ما ذكر من قبل من الختم على القلب والسمع، والتغشية على البصر، وسياقها يربط الأمر بالهوى، أو كما جاء فيها: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وهو «.. إشارة إلى الأصنام إذ كانوا يعبدون ما يهونون من الحجارة، وقال قتادة: المعنى لا يهوى شيئاً إلا ركبته لا يخاف الله، فهذا كما يقال: الهوى إله معبود»⁽⁵¹⁾.

وعلى هذا فالختم والتغشية لها ارتباط بتأليه الهوى؛ فصاحبه لا يعمل عقله وسمعه وبصره لإدراك الحق، و«إنما يأتى بهواه؛ فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه»⁽⁵²⁾، وما وافق هواه هو الحق الذي قامت عليه كل حجة، وما خالف هواه هو الباطل البين الجلي.

وعليه فالذين كفروا قد تعطلت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم فصاروا كالأنعام أو أضل منها، وأثرت أهواء نفوسهم على موازينهم فاختلفت وصار حكمهم على الأشياء تبعاً لها، وهم في ذلك درجات بعضهم هو كالمغلول الذي من بين يديه ومن خلفه سد، وبعضهم

قد غشي على بصره وختم على سمعه وعقله، وبعضه طبع على عقله وسمعه وبصره فلا ترجى له توبة ولا يتوقع للطبع الذي على عقله وسمعه وبصره زوال.

هذا عن أثر العقيدة الفاسدة على مستوى الفكر، فما أثرها على المستوى العملي؟

3 - الأثر العملي: عندما ابتعث الله رسله إلى الناس، جاؤوا ليصلحوا فسادا عقديا وانحرافا في الأعمال والسلوك، لذلك خلد القرآن الكريم جهاد هؤلاء الأخيار وجهدهم وقصه في سور كثيرة⁽⁵³⁾، وإنما إذا نظرنا في شيء من ذلك وجدنا أن هذه الدعوة واحدة، وأهم من ذلك في هذا المقام أنها اعتمدت أسلوبا واحدا؛ فكانوا - عليهم السلام - جميعا يبدؤون بالدعوة إلى إصلاح العقيدة، ثم بعده إلى إصلاح السلوك والعمل، ففي سورة الشعراء:

- {كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلى على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون} (الشعراء:110-105).

- ثم {كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون} (الشعراء:131-122).

- ثم {كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتتركون في ما هاهنا أمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون} (الشعراء:150-141).

- ثم {كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} (الشعراء:166-160).

- ثم {كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين} (الشعراء:180-176).

قال الفخر الرازي تعليقا على قول نوح عليه السلام - وهو قول جميع الرسل من بعده -: «واعلم أن القوم إنما قبلوا تلك الأديان للتقليد، والمقلد إذا خوف خاف، وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال، فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله (ألا تتقون)»⁽⁵⁴⁾.

أ.د. عبد الحليم بوزيد أثر العقيدة الفاسدة على المستوى القلبي

فالرازي يبين هنا أن الدعوة إلى التقوى وتحريك الخشية في القلب يثير في النفس ما يؤدي إلى تصحيح الانحراف وإدراك الحق، ثم يبين أنها الدافع إلى التزام الطاعة واجتناب الانحراف، قال: «وإنما قدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته، لأن تقوى الله علة لطاعته، فقدم العلة على المعلول»⁽⁵⁵⁾. وكلامه صريح في أن العلاقة بين العقيدة والعمل علاقة العلة والمعلول، وهو ذات ما يقوله البقاعي: «ألا تتقون: أي تكون لكم تقوى، وهي خوف يحملك على أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وبقاياه بطاعته بالتوحيد وترك الالتفات إلى غيره»⁽⁵⁶⁾.

ولما كانت التقوى مثمرة للأعمال سالحة، كان ضدها وهو الكفر منتجا لضدها؛ أي الكفر والمعاصي.

على أنه قد ورد في القرآن الكريم ما ينص على وجود أثر سيء للمعاصي على قلب الكافر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: 14).

روى الترمذي: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلق على قلبه وهو الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، قال: هذا حديث حسن صحيح⁽⁵⁷⁾، وكذا قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب.. وروى عن مجاهد أيضا قال: القلب مثل الكف - رفعه كفه -، فإذا أذنب العبد الذنب انقبض - وضم إصبعه -، فإذا أذنب الذنب انقبض - وضم أخرى - حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه، قال: وكانوا يرون أن ذلك هو الرين، ثم قرأ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ومثله عن حذيفة ؓ سواء، وقال بكر بن عبد الله: إن العبد إذا أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمخل أو كالغريبال لا يعي خيرا ولا يثبت فيه صلاح»⁽⁵⁸⁾.

وهذه الآثار كلها تثبت أن الأعمال لها تأثير على القلب، كما للقلب تأثير على الأعمال، فتكون العقيدة الفاسدة منتجة لأعمال السوء تزيد في عمى القلب، قال القرطبي: «الجوارح وإن كانت للقلب، فقد تأثر القلب وإن كان رئيسها وملكها بأعمالها للارتباط بين الظاهر والباطن، قال ﷺ: (إن الرجل ليصدق فتكتت في قلبه نكتة بيضاء، وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه)⁽⁵⁹⁾..»⁽⁶⁰⁾.

وقد فصل ابن القيم آلية هذا التأثير فقال - في سياق الحديث عن عقوبات المعاصي: «ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: أعلمني أيضا فإن علم لها قالت الثالثة كذلك، وهلم جرا، فتضاعف الربح وتزايدت الحسنات، وكذلك جانب السيئات أيضا، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت،

وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها إلا ما يجد من الألم بمفارقتها..» (61).

فمواقعة المعاصي تثمر في القلب شيئاً يتصور التعلق بها والاشتياق إليها وعدم الاطمئنان إلا بمعاودتها ولو لم يدع إليها داع.

وخلاصة القول في هذا البحث أن قلوب الكفار يرين عليها كسب الذنوب ويحيط بها كالأكنة، ثم يختم ثم توضع عليها أقفال ويستحكم من إغلاقها وآخر ذلك أن يطبع عليها فلا ترجى لها بعد ذلك توبة أو رجوع، ويمر الإنسان بهذه المراحل واحدة بعد واحدة، حتى يصل إلى مرحلة لا يرجع فيها عن غيه أبداً، ولا تؤثر فيه كل حجة، ويتعطل عقله وسمعه وبصره، فيصير أولئك كالأنعام أو أضل منها، وتؤثر أهواء نفوسهم على موازينهم فتختل يديه ومن خلف سداً، والبعض الآخر قد غشي على بصره وختم على سمعه وعقله، والبعض طبع على عقله وسمعه وبصره فلا ترجى له توبة ولا يتوقع للطبع الذي على عقله وسمعه وبصره زوال. ثم إن هذه العقيدة المنحرفة تنتج المعاصي والانحراف، وذات المعاصي تنتج أثراً سيئاً في قلوب أهلها. هذا عن آثار العقيدة على المستوى القلبي والفكري والعلمي.

الهوامش:

- (1) تفسير القرطبي ج1، ص186.
- (2) لعله لم يذكرهما لأنهما داخلتان تحت الختم والطبع.
- (3) انظر سبيل المثال: ابن جرير، جامع البيان 112/1، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم 46/1، وابن الجوزي، زاد المسير 28/1، وأبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 91/1، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، بيروت - الدار الشامية، دمشق، ط1: 1415.
- (4) تفسير الطبري ج1، ص112.
- (5) تفسير القرطبي ج1، ص185-186.
- (6) تفسير التحرير والتنوير 254/1.
- (7) تفسير الطبري ج1، ص112.
- (8)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب أن الإسلام بدأ غريباً 128/1-129، وأحمد بن حنبل، مسند أحمد 386/5، مؤسسة قرطبة، م، صر د ت ط.
- (9) لسان العرب ج5، ص402، الكوز: الكوب، جخي: مال وانحنى، ج14، ص133.
- (10) انظر تفسير القرطبي 8/6.
- (11) تفسير ابن كثير ج1، ص46.
- (12) الأعراف: 100.
- (13) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ب، صائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز 289/4، المكتبة العلمية، بيروت، د ت ط.

- (14) د/ أحمد رحمانى، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً، ص 156، منشورات جامعة باتنة، د ت ط.
(15) سلمان زيد سلمان اليماني، القلب ووظائفه في الكتاب والسنة، ص 368.
(16) ابن القيم، التفسير القيم، جمع محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، ص 143، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت ط.
(17) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 227، 425، دار الفكر، بيروت، 1407 – 1987.
(18) تفسير البغوي 126/04.
(19) سلمان زيد سلمان اليماني، مرجع سابق، ص 371-372.
(20) تفسير ابن كثير 580/02.
(21) تفسير ابن كثير 580/02.
(22) انظر: أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، ص 71، تحقيق: د/ يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط1: 1410-1999.
(23) أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج9/ ص 99، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأن، صاري، السيد عبد العال سيد إبراهيم، ط1: 1987-1408.
(24) أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، روح البيان ج9/ ص 4، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1418-1997.
(25) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ج8/ ص38، دار الفكر بيروت، د ت ط.
(26) نفسه.
(27) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير ج1/، ص462، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3: 1404هـ.
(28) فتح القدير 38/8.
(29) تفسير القرطبي ج08، ص300.
(30) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن ج3/ ص 270، تحقيق: محمد علي ال، صابوني، جامعة أم القرى، مكة، ط1: 1406.
(31) تفسير القرطبي 462/1.
(32) الشوكاني، فتح القدير 400/5.
(33) ابن جرير، جامع البيان 97/30.
(34) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 486/4.
(35) رواه مسلم في، صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ج4،، ص 2075، ح2702، تحقيقك محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت ط.
(36) السجستاني، نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، ص248.
(37) الشوكاني، فتح القدير 400/5.
(38) وهو في، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أن الإسلام بدأ غريباً 128/1 – 129.
(39) جامع البيان 112/1 – 113.
(40) تفسير الطبري 112/1.
(41) الشوكاني، فتح القدير 400/5.
(42) القرطبي، الجامع لأحكام القرنين 185/1 – 186.
(43) النسفي، تفسير النسفي 48/1.
(44) ابن تيمية مجموع الفتاوى، 181/16، جمع: عبد الرحمن محمد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، د ت ط.
(45) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 269/2.
(46) ابن جرير، جامع البيان 114/1.

- (47) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 47/1.
- (48) نفسه.
- (49) الشوكاني، فتح القدير 360/04 - 361.
- (50) ياسين جاسم المحيد، من لطائف القرآن الكريم، ص 22، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1: 2001 - 1422.
- (51) عبد الرحمن بن محمد بن خلعوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن 145/04، مؤسسة الأعلمي للطبوعات، بيروت، د ت ط.
- (52) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 151/04.
- (53) انظر مثلاً: سورة الأعراف، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، القمر..
- (54) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب 133/24، دار الكتب العلمية، بيروت ط1: 1411 - 1990.
- (55) نفسه.
- (56) نظم الدرر 374/05.
- (57) أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، السنن، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة "ويل للمطففين" 434/5، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت ط.
- (58) الجامع لأحكام القرآن 259 /19 - 260.
- (59) في كتاب الزهد لهناد: "قال عبد الله [أي ابن مسعود]: عن الرجل لي، صدق ويتحرى ال، صدق حتى ما تكون للفجور في قلبه موضع إبرة يستقر فيها وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى ما يكون للبر في قلبه
- (60) تفسير القرطبي 188/01.
- (61) ابن القيم، الجواب الكافي لمن يسأل عن الدواء الشافي، ص 64، المكتبة الثقافية، بيروت: 1414 - 1993.